القيمة العلمية والحضارية للمخطوط

أ.عاشور بارودي

جامعة باتنة

مقدمة:

إن الداعي إلى خوض الحديث في هذه الفكرة هو قلة الاهتمام عندنا بالمخطوط على الرغم مما يمثله من عصارة الفكر وأمارات العصر وقيمة الجهد الإنساني في الحياة،كونه أعظم جهدا، إضافة إلى أن الناظر إلى الجانب الآخر(خارج الحضارة الإسلامية العربية) تظهر له قيمة الاهتمام العظيم بكل تراث صغير أو كبير، قديم أو حديث، مادي أو أدبي، مما يبين بسهولة بالغة، الفرق الكبير والبون الشاسع بيننا وبين غيرنا.

ولعل الناظر في التراث المكتوب (المخطوط خصوصا) يجد عمق التاريخ وأصالة العادات وفن العمل وعظمة الفكر مما يحتم ضرورة الاهتمام به والاطلاع عليه والمحافظة عليه أيضا وشرحه وتفسيره والاستفادة من مواده وخلاصاته والاهتمام على منواله وتبليغه إلى الأجيال الآتية،لأن في ذلك البناء الحقيقي للإنسان صاحب الحضارة الباسقة والأصلية واليانعة، كما فيه تكريس لخلق وسلوك إنساني يعد الجوهر فيه ألا وهو سيرة البحث والاستكشاف في هذه الحياة، هذا عدا ما ينقله من أخلاق الرجال وحس الانتماء وعظمة الأمة وقوة سلاحها الذي سادت به.و عليه فإن التفريط في هذا التراث المخطوط هو تفريط في الماضي والحاضر والمستقبل، وبالتالي تفريط في الحياة كلها.

وقد تكون حالتنا في الجزائر من أوجع مواجيع هذا الموضوع، نظرا إلى حالة التفريط الشديد التي يعاني منها المخطوط خصوصا في أماكن الزوايا والمعاهد القديمة وحتى بعض المكتبات العامة، وقد يعود ضياع وتلف بعض المخطوط إلى الطبيعة أو عوامل أخرى إلا أن الإنسان في النهاية هو المتهم بلا شك بفقدان الإحساس الرابط بهذا التراث، لأنه في الأصل هو المتحكم في ظروفه الخارجية بنسبة كبيرة.

وعلى هذا الأساس نرى أن هذا الملتقى " المبارك " جاء مناسبا تماما ومحققا ضرورة من الضرورات المستعجلة لعل الضمير يحيى ونعود جميعا مؤسسات وأفراد في عمل منسق وحر إلى الاشتغال العلمي بهذا الموضوع جمعا وتحقيقا ودراسة وتصنيفا وترتيبا واستفادة وتخطيطا للمستقبل.و يحسن بنا المقام أولا في الوقوف عند مفهوم المخطوط ثم تبيان قيمته العلمية والحضارية.

I مفهوم المخطوط:

لغة: في التاج، كتاب مخطوط: مكتوب فيه[1].وفي المعجم الوسيط: المخطوط هو المكتوب بالخط لا بالمطبعة، والمخطوطة النسخة المكتوبة باليد[2].وواضح من هذا المفهوم اللغوي أهم ركني هذه الوثيقة الأساسية ألا وهما: الكتابة واليد، أو بعبارة اصطلاحية الوسيلة والانجاز، ويعدان-إذن- من أخص خصائصها،و لعل

Scanned by CamScanner

الوسيلة هنا أن تكون أبرز علامة في الوثيقة، ألا وهي "اليد" بخلاف الآلة، وهذا بدل مساطة على أن الوثيقة لا تنال اسم المخطوط إلا إذا كانت أساسا مكتوبة باليد لا كتابة بالآلة الراقنة أو الطابعة أو غيرهما، وربما أهملنا هذا مباشرة إلى أصل الخط بداية والذي لا يمكن أن يكون قد تم إلا باليد، وفي هذا إشارة مقصودة إلى عنصر الأصالة في المخطوط بعد ذلك، إضافة إلى ما تعنيه اليد من بعد إنساني يختلف عن بعد الآلة.

أما في الاصطلاح فإن المخطوط هو ذلك الكتاب(المدون، الوثيقة) المكتوب بخط اليد من بدايته إلى نهايته والمتضمن في رقعة واحدة أو صحف عديدة بين دفتين، والمعبر عن موضوع من الموضوعات سواء كان مكتوبا بيد المؤلف ذاته أم كان نقلا عنه بالإملاء، أو السماع، وإن كان المؤلف المكتوب بيد صاحبه أحدر وأوثق، ويكون ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

مع الإشارة إلى أن المخطوط قد يكون من قبيل الشروح والتفاسير والتعاليق والزيادات في الحواشي أو غيرها مما يجوز أن يتعرض له المتن الأصلي والزيادة الجديدة حفاظا على المصدر.

إذن فإن المخطوط في المفهوم الإصطلاحي أساسا أن تتميز آلته اليدوية عن آلته الاصطناعية حفاظا على قيمته المعنوية في الجانبين المادي والأدبي.و إلى هذا يعرف عبد الرحمان عبد الحميد المخطوط بقوله": هو كل كتاب قديم تركه مؤلفه بخط يده أو بخط غيره"[3].

و يظهر من خلاله أربعة عناصر أساسية تتعلق بالمخطوط ألا وهو:

1- كونه كتابا يعني مجموعة من الصفحات الورقية بين دفتين.

2- القدم، وهذا عنصر زمني لعل المقصود به هو الفصل بين عصر الطباعة وما قبله.

3- الكتابة الذاتية، يعني بخط مؤلف الكتاب نفسه.

4- الكتابة الغيرية ويعني بخط الآخر.

و هذه الكتابة عموما يمكن حصرها في عنصر الوسيلة اليدوية- كما سلف- وإذن فهي العناصر المكونة المخطوط في وظائفية مترابطة.

وهذا المفهوم يعني الصورة النهائية التي يخرج فيها المخطوط، دون الإشارة إلى البنى المادية الأخرى، كالحبر والورق خصوصا فإنهما أيضا ضروريان ويساعدان في تدعيم هيئة المخطوط، ولا شك إذن في أن النوعية الجيدة في الحبر والورق تعطيان صورة ناصعة للكتاب سواء من حيث توضيح القصد من الكتابة أو إطالة عمر المكتوب، وهذا في حقيقة الأمر يحيل مباشرة إلى مسالة عقبات المخطوط أو مشاكله التي يمكن أن تعترضه، وخصوصا تمحيص المادة المكتوبة وحفظها.وهذا ما يجعل في صناعة المخطوط ذاته شروطا أساسية يجب أن تراعى ولعل المؤلف الأصيل أن يشعر بها ويلتزمها باعتبار أن المشتغل بالمسألة العلمية أسير الحقيقة، ولذلك فهو يبذل كل الجهود لإخراج عمله في صورة لائقة شكلا ومضمونا.

أما إذا كان الخطاط أو الناسخ الذي ينسخ كتب غيره، فإن المهمة ستتضاعف والمشقة تزداد حفاظا على المادة وعلى الغير وعلى الذات.

Scanned by CamScanner

وعلى هذا الأساس فإن مفهوم المخطوط يكون قد اتسعت عناصره لتشمل المؤلف أو الناقل والورق والحبر والقلم ونوع الخط والمحافظة على المكتوب، وإذن فإن المخطوط في النهاية حلقة من العناصر المترابطة، وبقدر ما تبدو هذه الحلقة مكتملة ومترابطة وشاقة بقدر ما تدل على العمق والأصالة والاجتهاد.

II القيمة العلمية للمخطوط:

إن المقصود بالقيمة العلمية للمخطوط هنا هو مدى ما يحمله من معان في مكتوبه وكذا في منهجه، ذلك أنه كتاب مخصوص في جانب معرفي معين إضافة إلى طريقة عرضه لتلك المادة العلمية.

وإذا علمنا أن القرآن الكريم في الحضارة الإسلامية العربية هو منطلق لجل الكتابات العلمية التالية أدركنا لماذا وكيف تشعبت الدراسات في مختلف الميادين(دينية ودنيوية) ولعل أشهر ما يعرض لنا في هذا المقام هو نسخ القرآن الكريم نفسه، فإن المتأمل في تلك العملية ليدرك قيمة الجهد العلم المبذول، فمع أن الآيات كانت تكتب عند نزولها في مختلف المواضع(جريد النخل، الجلود، صفائح الخشب، الحجارة.....) ناهك عن حفظها في صدر النبي (ص) وصدور الحفاظ إلا أن أبا بكر الصديق جمع القرآن في كتاب واحد، وكان ذلك في منتهى الدقة والأمانة سواء في جانب الحفظة أو جانب الكتبة، فقد اعتمد إذن على إمكانات بشرية منتقاة، وجمع المادة القرآنية في نسخة واحدة حتى يسهل الرجوع إليها ويلم بها.و في عهد عثمان ذي النورين أيضا تمت عملية الجمع الثانية، وكان القصد منها توحيد القراءة والمقروء معا، فانتسخت النسخة الأولى (نسخة حفصة) ووزعت لتعمم، وكانت الآلية هي نفسها المستعملة زمن النبي (ص) أي كتبة الوحي عند رسول الله (ص) وهنا تظهر لنا قيمتان أساسيتان هما:

1. الاعتماد على المصدر الأصلي أي النقل من المواضع المتفرقات إلى النسخة الموحدة زمن أبي بكر، مع مراعاة ما سمح به النبي (ص) من تنوع في قراءة الحرف القرآني (القراءات السبع أو العشر).

2. الاعتماد على جهاز نخبوي في تنفيذ عملية الانتساخ والكتابة وفي هذا المقام يتصدى كتبة الوحي عند الرسول (ص) لاعتبارهم من أمهر الكتبة ليس في الوحي وحده ولكن في الكتابة عموما كعلي بن أبي طالب وأبيّ بن كعب وعثمان بن عفان وخالد بن سعيد ومعاوية بن أبي سفيان [4]، وزيد بن ثابت الذي كان أعلم الكتبة باللغات الأخرى كالعبرانية والسريانية والفارسية والرومية والقبطية والحبشية [5].

ومن هذا المنطلق باشر العرب الأوائل بعد العهد النبوي والراشدي عملية التعلم والتعليم والتأليف وإبداع العلوم (خصوصا الدينية والأدبية) بمنهج يخضع للرحلة والنقل والسماع والتثبت، وفي ظل هذا السبيل الفائض من الدراسات كان حتما أن تظهر حرفة الوراقين والنساخين، المهتمين بصناعة الكتاب تقنيا بداية من عملية النسخ والكتابة إلى غاية إخراج الكتاب ترتيبا وتصفيفا وتجليدا.و في هذا المجال كان لنقل عادات الأمم السابقة كالهند والفرس والروم دورا بارزا، كما أضفت نفس الإبداع أسلوبا خاصا في الشكل والمضمون معا.

كما تمثل الأدوات المستعملة أساسا.بيّناً في هذه الصناعة وخصوصا ما تعلق بالورق المستعمل في الكتابة والذي كان يأتي في البداية من خارج البيئة العربية من الشرق الأقصى (الصين)[6] وبيزنطة (أو تركيا).و ذلك

Scanned by CamScanner

كله من أجل تسهيل عملية النسخ وتسريعها. و يلاحظ أن ميزة المخطوط الورقي كانت أكثر انتشارا من غيره نظرا لسهولة التعامل مع هذا النوع من الوسيلة؛ لأن ورق(البردى والكاغط)، أخف وزنا وأرق صفحة ومن ثم يسهل حمله وتقسيمه وتحجيمه ونقله. و في خطوة أخرى تم تجليد الكتاب الورقي لحفظ المادة الورقية، لأن الجلد ذو خصائص مقاومة وحافظة من آثار الرطوبة والكدمات وعليه فقد روعيت عملية استغلال الخصائص المشتركة لكلا المادتين، وهذه إحدى العبقريات الفنية في الصناعة الكتابية العربية.

و بالعودة إلى صناعة المخطوط من حيث النسخ والكتابة تتبدى القيمة العلمية من خلال الشروط التي تم على أساسها هذا العمل وخصوصا ما تعلق منها بجانب الخطاط أو الناسخ ذلك أن أصل الصنعة يتوقف على مهارة الصانع وإخلاصه وعليه كان المشترط في الوراق الذي يمثل آلة النسخ والطباعة شروطا أهمها[7]:

1. أن يكون الوراق على قدر كبير من الثقافة والمعرفة بالعلوم، وخصوصا علوم اللغة كي لا يقع في الأخطاء النحوية والإملائية، والعلم بمواضع الفواصل كي لا يوصل الكلام على طريقة واحدة.

2. العلم بالعلوم الفقهية الشرعية كي يلتزم بالأمانة التي تمنع التزوير والكذب، وكذا الإشارة إلى مواضع الخطأ في الكتاب الأصلي في حاشية الكتاب الجديد.

3. العلم بعموميات المعرفة وهذا حتى لا يقع في الخطأ الكتابي ويميز بين المصطلحات المستعملة في العلوم المختلفة. و الحق أن في هذا الشرط قيمة عظيمة لأنها تسد الثغرة على الاختلاط الذي يمكن أن يحصل بين دلالات الكلمات الموظفة، خصوصا إذا علمنا أن المنطق بوسعه أن يوظف كلمات معينة في حقول مختلفة لكنها بدلالات متباينة تخص السياق المعرفي لذات الحقل، كما قد يحصل في مجالات: الرياضيات، والفقه والنقد وغيرها.

4. أخذ موافقة المؤلف الأصلي أو ناظره، أما إذا كان الكتاب وقفا غير معين فلا بأس بالنسخ منه مع الاحتياط بإصلاحه لمن هو أهل لذلك، وفي هذا حفظ للحقوق المادية والمعنوية.

5. يمكن للوراق أن يرفض نسخ الكتاب المضلل، ككتب أهل البدع والأهواء، وكل كتاب لا يتناسب مع عقيدة وفكر الوراق.

6. وفي منهجية الكتابة يتدئ الوراق بكتابة البسملة ثم يعقب ذلك بحمد الله والصلاة على الرسول (ص) وعند إنهاء الجزء الأول منه أو جميعه يختمه بحمد الله على إتمامه والصلاة على الرسول الكريم (ص)، كما يمكن أن يذكر في الخاتمة مكان الكتابة وزمنها.

7. و من الشروط الدقيقة الصارمة أن الوراق إذا نسخ كتابا من كتب العلوم الشرعية فينبغي أن يكون على طهارة مستقبل القبلة بثياب طاهرة وحبر طاهر.

8. ومن الأمانة العلمية التي هي من قبل الخلق الملتزم والعقيدة الراسخة أن الناسخ لا يجوز له أن يحذف شيئا من الكتاب الأصلي بل أن ينقله كما هو خصوصا إذا حصل على أجرته مسبقا.

Scanned by CamScanner

9. ومن الشروط الشكلية التي تراعي في المخطوط أن يتم الاتفاق مع الخطاط أو الناسخ على نوع الورق وحجمه ولونه، لأن ذلك يسهل عملية الإخراج المساعدة على قراءة الكتاب وفي الغالب كان مكروها الكتابة باللون الأحمر.

10. أن يكون الخطاط أو الكاتب ذا خط جيد يرسم الحروف بشكل واضح لا يضر بالبصر، وذا معرفة بأنواع الخطوط، وأن يحمل القلم من المرونة ما يساعد على جودة الخط، إضافة إلى الحبر الجيد، وقد سئل أحد الوراقين عما يشتهي فقال:" قلما مشاقا وحبرا براقا وجلودا رقاقا".و لهذه العوامل أثر مباشر في سعر النسخة من الكتاب.

11. ومن تمام الاحتراز أن المؤلف يراقب كتابه قبل إخراجه، وإن كان الكتاب منسوخا فإن الناسخ عليه أن يقابل النسخة الجديدة بالأصلية حتى يقف على مواضع الخطأ والسهو كما يمكنه أن يخرج أشياء في الحاشية بعد أن يترك لها فاصلا عن المتن الأصلي.و من الزيادة في الدقة أن يخصص نثر معين بعملية المراقبة والمراجعة للمؤلفات المنتسخة مثلما فعل الحكم محمد بن أبي الحسن بمقابلة كتاب العين بالتعاون مع أبي علي البغدادي وابن سيده.

وإضافة إلى هذه الشروط الواجب توفرها في شخص الناسخ أو الكاتب أو الوراق فإن طريقة التواتر في رواية وانتقال الكتب تمثل قيمة علمية بارزة في المخطوط وذلك عن طريق السلسلة السندية إلى غاية المصدر الأساسي، ومثال ذلك رواية نسخة أشعار الهذليين من أبي الحسن على بن عيسى بن على بن عبد الله الرماني عن أبي بكر أحمد بن محمد بن عاصم الحلواني عن أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت275هـ) [8].

وإذا أضفنا مع هذا تلك الشروط التي وضعتها المدرستان البصرية والكوفية [9].في حق قبول الرواية من الرواة، كالعدالة والأمانة والحضور والمشاهدة والسماع والرحلة والإملاء والتدوين وغيرها.تبين لنا مدى الاهتمام العلمي الذي انتقل من المروي الشفاهي إلى المكتوب المخطوط في الصحف، ولعل عملا مثل الذي قام به الخليل بن أحمد ليدل على القيمة التي انتقلت إلى المخطوط بعد الجهد الذي تم أثناء الجمع والفحص، والذي تدل عليه مؤلفاته.

وعلى هذا المنوال سارت الكتب المخطوطة المؤلفة من حيث المنهجية أو الخط أو المحتوى الذي تنوع بحسب ازدهار الدولة الإسلامية وإمارتها في الشرق والغرب، ولعل الصورة التي يقدمها ابن خلدون [10] أن تكون ناصعة فيما يخص مصالح الدول الإسلامية التي تتخذ لها دواوين في شتى القطاعات (العسكرية والسياسية والاقتصادية) وهذا ما يدل على أمرين:

أولهما: أن المخطوط قد اتسعت مضامينه حتى اشتمل على مختلف المعارف والعلوم.

و ثانيهما: هو قيمة تاريخية تتمثل في المخطوط الذي وثق هذه المعارف وأرّخ لها وحفظ مضامينها ومتونها.

Scanned by CamScanner

غير أن الملاحظة الأساسية في حلّ هذا المخطوط تشكف عن تأثره في أسلوبه كثيرا بالمنهج الديني، ونقصد من ذلك الاحترام المستمد من الدراسات الدينية للمؤلف والكتاب والكتابة عموما.و لعل هذا يرجع إلى أن الدين هو السبب في انتشار الكتابة انتشارا واسعا وفتح مجالات المعرفة مجددا.

وتبقى القيمة العلمية للمخطوط من حيث الخط أنها تتحلى أساسا في هدف التوضيح وتسهيل التبليغ، وخصوصا بعد أن صارت المعرفة الدينية – بمجيء الإسلام – ضرورة حتمية، فقد كان عرب الشمال الدين ورثوا الحضارة العربية قليلي الإجادة للخط بخلاف أسلافهم التبابعة اليمنيين [11].و هذا ما ظهر أثره في تدوين المصحف من قبل الصحابة بخط لم يرق إلى الجودة.إلى أن نزل الإسلام بأرض "الكوفة" فبدأ الاهتمام بالخط وإجادته ثم كانت الحاجة إلى تحسينه أكثر فولد الخط النسخي اللين والمناسب في الوضوح.و هذا ما جعله ينتشر على نطاق واسع حتى رأى أحد الدارسين أنه لهذا السبب "يمكننا إدماج الكتابات العربية ضمن باب اللغات التي اعتمدت الكتابات المستمرة اليدوية للطباعة، باعتبارها أنها اعتمدت الخط النسخي اليدوي خطا مطبعيا أيضا لمرونته ووضوحيته..." [12]

كما تتجسد القيمة العلمية للمخطوط من حيث الخط في النظرة الإبداعية التي صاحبت مسيرته انطلاقا من الكوفة، البلد الأول، ثم تعميم الاهتمام به في المشرق عموما وهذا ما يظهر في اتخاذ المعلمين وسيلة لتعليم الخط ونقل فنونه كما كان يحدث في مصر والشام والعراق.[13]

بينما تقلب الأمر في بلاد المغرب والأندلس بحسب الظروف السياسية والاجتماعية فكان خطا أندلسيا متميزا بالجودة في فترة الازدهار الحضاري، ولكنه انقلب إلى الرداءة بعد أن انفرط عقد الدول والممالك في هذه الجهة[14].هذا بعض ما يمكن أن تحمله القيمة العلمية للمخطوط.

III القيمة الحضارية للمخطوط:

نقصد بالقيمة الحضارية للمخطوط تلك الأبعاد التي يحملها معه والمتعلقة بكينونة هذه الأمة ووجودها، فهو أثر مادي مشع بالمعاني المحيلة على الوقائع الماضية من عمق التاريخ والجغرافيا والسيرورة الحضارية المليئة بالمتغيرات والمتفاعلات والنتائج والأسباب.

والمخطوط في خضم كل هذا يرصد المعالم ويخزن المدلولات وينتصب شاهدا على العصور.

ولذلك فإن قيمته في هذا الشأن تكمن فيما يقدمه من معلومات عن العصر الذي دون فيه من حيث ظروفه السياسية والاجتماعية وحدوده الجغرافية وأحداثه التاريخية وأشخاصه الفاعلين في الفنون والعلوم والنشاطات العامة.

وعلى هذا نكتشف مسألة بساطة المخطوط أو حجمه وعدده مدى عراقة الفعل الحضاري، أو بساطته، ففي العصر النبوي والراشدي لم تكن المخطوطات إلا مختصرة قليلة العدد ما يدل على بداية تشكل الدولة الإسلامية الجديدة، ولكن بعد توسع هذه الدولة وحلولها في القارات الثلاث وكثرت المؤلفات والكتب المستنسخة وانتشرت دور الوراقة، وصار عدد الدواوين مالا قبل لأحد بإحصائه، فإذا علمنا فقط بعدد هذه

Scanned by CamScanner

الكتب وأماكنها أوحى لنا ذلك بسعة الرقعة الجغرافية للدولة وعظم انتشار العلوم والمعارف تعلما وكتابة ومدارسة، وهي في النهاية تحيل مباشرة إلى ارتقاء المدنية المتحضرة مثلما يشير ابن خلدون في أكثر من موضع[15]

في شأن هذه القيمة التاريخية الكبيرة للمخطوط يقول إبراهيم جمعة "...... وقد أظهرتنا دراسته [الأستاذ جروهمان} لأوراق البردى العربية على كثير من غوامض الحياة في مصر الإسلامية منذ عام [illegible] حتى العصر الفاطمي، وقد كان اكتشاف هذه الوثائق البردية هاديا عظيم الأثر في جلاء بعض نواحي التاريخ المصري الإسلامي حيث أطلعت المؤرخين على صحائف بالغة الأهمية عرف عن طريقها الكثير من دقائق الحياة الاقتصادية المعيشية والمهنية والإدارية في العصور الإسلامية الأولى[16] فالمخطوط بحق هو صورة العصر الحية المحفوظة في تلك السطور والحروف، والكلمات واللغة والأرقام، وذلك راجع إلى تنوع الدواوين المستعملة في الخراج والعسكر والصدقات ودور المكتبات السلطانية والأميرية والمكتبات العامة والوراقين وهو في النهاية يعكس الازدهار الذي مس الحضارة الإسلامية ورقيها أثناء تعاملها بمرونة مع سائر الحضارات السابقة مما سمح لها بالاستفادة من عدد كبير من تقنيات التنظيم العام، ومنها التصنيف في الدواوين الرسمية ومنهجها في ذلك.

ومن القيم الحضارية التي تدخل في هذا الجانب احتكاك اللغة العربية باللغتين الفارسية والرومية(اليونانية) في العراق وفي الشام ومصر، وذلك أثناء إنشاء الدواوين ونقلها إلى اللغة العربية[17] فقد كانت تلك الدواوين قبل نزول الإسلام في العراق تدون بالفارسية كما كانت في الشام ومصر باليونانية، ولاشك أن هذا الاحتكاك سمح بمرور عدد من المفردات إلى اللغة العربية والعكس صحيح، إضافة إلى الاستفادة من طرق الكتابة ومنها التبويب، ولعل هذا أن يكون من أهم مصادر الاغتناء اللغوي.

أما في تنوع الموضوعات المعرفية للمخطوط من فلسفية ودينية (دراسات قرآنية وعلم الحديث، الفقه وأصوله...........) وأدبية وتاريخية ولغوية وعلمية ومنقولة(مترجمة،...) فدلالة كبرى على التطور الهائل الواقع في ثنايا الأمة وسريان العلم والتعلم والصنائع المختلفة.

كما يعد الشاهد المادي المتعلق بنوع الورق والورق والبردى والقماش على تطور الأمة وازدهارها.و التقدم نحو ابتكار أيسر السبل لتطويع الكتابة وتسهيلها وتسريع التعامل بشأن الوثائق وتوسيع المدى أمام الكتابة التي صارت أحد أشد اللوازم الحياتية في مفاصل الأمة والدولة، في هذا يعد الورق آخر الابتكارات الممكنة لتحقيق الهدف المنشود.

إضافة إلى القلم الذي نحت من أجود المواد حتى صار لينا مطواعا، ولعل هذا إن يدل من جهة أخرى على مدى استغلال الأمة للعوامل الحضارية المسؤولة عن التنمية وهما الوقت والمادة.

هذا عدا ما يقوم به المخطوط من دور فعال في نقل تراث الأسلاف إلى الأخلاف، فيما يخص العلم والدين والعادات والسلوكات والقيم ومسار الأمة وتوجهها عموما.

Scanned by CamScanner

فهو إذن الحافظ لروحها والقناة الواصلة بين الماضي وحاضر الأمة، وإذا تذكرنا أن ... حاضر ولا مستقبل أدركنا قيمة ما يقدمه المخطوط للأجيال الحاضرة عن روح أمتهم، والحقيقة أن المستفاد من روح هذا التراث المنقول هو عوامل القوة التي أتاحت لهذه الأمة أن تظهر على غيرها وتتفوق ومن ثم وجب تقليدها من طرف الجيل الحاضر، ومن هنا تتولد قيمة حضارية أخرى للمخطوط ألا وهي المهمة الرسالية التي يتبوؤها تجاه أبناء الأمة الجدد إذ يكاد يقوم مقام الدعاة والموجهين.

IV الاهتمام بالمخطوط:

إن الكلام السابق يقودنا بوضوح إلى الحديث عن وجوب الاهتمام بالمخطوط من باب الفريضة لأنه محافظة على العهد واستكمال لمسار النمو والارتقاء ورد الجميل لتلك الأجيال التي أفنت حياتها لصالح خدمة الأمة في جوانبها المختلفة، وإننا إذ نذكر هذا فلابد أن نعبر عن شدة الأسف التي تكاد تخنقنا بسبب ما نعيشه في زمننا من قلة الاهتمام بالتراث عموما وبالمخطوط خصوصا وتركنا الاستفادة من كل الجهود المبذولة في تلك المعارف المودعة في بطون كتب السلف وعدم تطويرها..، هذا التخلي الذي يصل أحيانا إلى حد الإهمال التام بل والاستهتار، ولعل هذا يتجلى في عملية الاندثار التي تقع أحيانا أمام أعيننا دون أن نحرك لها ساكنا فمن آثار بنائية عتيقة تهدم وتطمس وتخرب إلى تحف وقطع نقدية تنهب[18] إلى مخطوطات تتحلل وتبلى وتسرق وهو الفعل الحاصل في عموم البلاد العربية، وقد يكون من بالغ الأسف أن يقع أحيانا ذلك بأيدينا وخصوصا في بلدنا الجزائر- حيث تقرأ في أخبار الصحف بشكل متكرر صورا مختلفة عن الانتهاكات الحاصلة في حق الآثار والتراث عموما، وقد يكون أخطره ذلك الذي يتم عن طريق السياح في صمت رهيب وفي غفلة تامة وقد يكون المستهدف الأول من عملهم هو المخطوط وخصوصا ذلك المتواجد بالزوايا وقصور في جنوب البلاد من بقية آثار القرون الماضية.و مضافا إليه سبب طبيعي آخر وهو الفيضانات التي تأتي من حين لآخر لتجرف أرشيف عشرات من السنين قد يبلغ القرن أو يزيد، كما حصل في غرداية عندما أتلفت سجلات قرن كامل.

إن التريف الحاصل في هذا المجال خطير جدا وهو كفيل بأن يضعف الأمة إلى حد العجز إن لم يقض عليها وهذا ما يستدعي تدخل المؤسسات مجتمعة بداية من الوزارات المسؤولة الأربع(الثقافة والتربية والتعليم العاليو الشؤون الدينية) إلى معاهد الآثار والمكتبات إلى الشخصيات العامة.والإسراع في إنقاذ ما بقي من أثر للمخطوط بحفظه في صور عديدة بطرق يسيرة أسهلها الطريقة الالكترونية، ثم مدارسته والاستفادة مما فيه بإحياء العلوم النافعة ولغرض ربط الأمة بأصلها.وهو الجهد الذي يستدعي التعاون لأن "دراسة المخطوط مهمة صعبة وهي خاصة بالمحققين لأنها عمل قائم بنفسه، وليس من اليسير أن تقوم بدور المحقق والمؤلف في آن واحد[19].

وإذا تذكرنا ما حل بهذه الأمة من أيام نشأتها إلى زمننا هذا في مسيرة أربعة عشر قرنا، من نكبات ومصائب حلت بتراثها الروحي منذ اجتياح المغول والتتار وثورات الشعوبيين، إلى حملات الصليبيين في

Scanned by CamScanner

الأندلس، شمال إفريقيا وبلاد الشام، إلى زمن الاستعمار في القرن التاسع عشر والذي أصاب الأمة في عمومها.و ما صاحب ذلك كله من دمار لا نظير له في تراث الأمة الروحي من حرق للكتب والمكتبات وقتل للعلماء وتخريب للمعالم ودور العبادات.وطمس تام لمعالم شخصية الأمة إلى يومنا كما هو الحال في العراق الضحية وفلسطين الأسيرة وغيرهما، ليدعونا بقوة كبيرة إلى شد الإزار والوقوف على أطراف الأقدام في هذا المجال.

الهوامش:

(1) تاج العروس

(2) المعجم الوسيط، ص: 244 (حطط)، مكتبة الشروق، القاهرة، ط: 4، 1426 ه، 2005 م.

(3) معالم البحث الأدبي، ص: 144، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1428ه، 2008 م.

(4) عمر فروخ، العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي، ص: 145، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 2، 1388 ه، 1968 م.

(5) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وأدلتها التاريخية، ص: 55، دار المعارف، القاهرة ط: 3، 1966 م.

(6) نفسه، ص:88.

(7) انظر مجمل هذه الشروط في مقال "الوراقون الأندلسيون إشعاع حضاري" ل: فريدة الأنصاري، ص:206، 207، 208، مجلة التراث العربي، فصلية محكمة، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد:113، ربيع الاول 1430ه، مارس 2009 م، السنة التاسعة والعشرون .

(8) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وأدلتها التاريخية، ص:564

(9) نفسه، ص 429: وما بعدها.

(10) المقدمة، ص 256: - 264، دار الفكر بيروت، ط:1، 1424ه، 2004 م.

(11) نفسه ص:436.

(12) خالد قطبش، الخط العربي وآفاق تطوره، ص 51:، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.

(13) المقدمة، ص:438، 439.

(14) نفسه ص: 439، 440.

(15) نفسه ص: 442.

(16)دراسة في تطور الكتابات الكوفية، ص:57، 58، دار الفكر العربي، القاهرة، 1969 م.

(17) نفسه، ص:58.

(18) انظر على سبيل المثال جريدة " الخبر" الجزائرية، ليوم 2012/04/03.

(19) علي جواد الطاهر، منهج البحث العلمي، ص:85، المكتبة العالمية، بغداد، ط:7، 1986 م.

Scanned by CamScanner